نكون على اتفاق؛ كلٌّ منا يَعْرف الآخر، بقدر الإمكان طبعاً.

قاطعتْه:

ـ جميل كل هذا، ولكنِّي لم أفهم.. كيف كانت مثلَ المركب المربوط بحبل..؟

ـ كانت مشدودةً إلى أُسْرتها. إذا جلسنا معاً، مثل هذه الجلسة مثلاً، لا كلام لها إلاَّ عن أختها المتفوِّقة في الجامعة التي يطلب ودَّها الأساتذة؛ وعن والدها الذي يَرْفض وضعَ توقيعه على أيِّ ورقة إلاَّ إذا وجدها معْتَمَدةً من رئيسه ومتطابِقةً للّوائح والقوانين. حتى أخوها الصغير الذي لا يَقْبل أن يشارك أولادَ الشارع اللعبَ إلاَّ إذا كان هو الرئيس، تحكي قصّته بالتفصيل الملّ.

ـ أنا أتفق معك، هذا أكثر من المطلوب.. ولكنَّه يدلّ على طفولة وصفاء ونفس.

ـ وأنا أريد زوجة، لا طفلة، وأريد حنكةً، لا صفاءً رومانسياً تافهاً. وبصراحة أنا أعتقد أنَّكِ لستِ مثلَ هذه ولا تلك.

أسبلتْ عينَيْها. رشفتْ من الفنجان الرشفة الأخيرة. قالت: فما العيب الذي ستكشفه في الجالسة أمامك؟

طفرتْ ابتسامته الجاهزة. تحسَّس سبحتَه في قاع جيبه. قال بثقة عالية:

ـ بصدق شديد.. الكمال، والجمال هما ما أشاهده. المهم أن يَجْمعنا بيت واحد..

وقاما بعد انتهاء فنجاني القهوة.

* * *

وجمعهما بيت واحد.. ودامت حياتهما عدَّة سنوات.. وأنجبا البنين، والبنات.. ولم تتكلَّم الثالثة في السياسة.. ولم تتكلَّم الثالثة عن أسرتها.. ولكنَّه في النهاية فارقها..

* * *

في المقهى نفسه، وربَّما أمام فنجانَيِ القهوة ذاتيهما، دار الحوار..

وكان يقول للتي أمامه:

ـ أنتِ مختلفة تماماً.. أنا عانيتُ.. تعذبتُ.. تحمَّلتُ.. ضِقْتُ. واحدة مغرمة بالسياسة، والثانية مثل السفينة المربوطة في الميناء لا تفكِّر إلاَّ في أهلها، والثالثة كانت تَعْبد أطفالها ولا تفكِّر إلاَّ فيهم. أمَّا البغل الذي يجرّ العربة، أنا، أنا بالتحديد، فلم تكن تعطيه أيَّ اهتمام. إنَّني أحلم بزوجة.. تؤكِّد لي كلَّ يوم أنَّها زوجتي. ها.. ما رأيك، أيتُّها الجميلة؟! □.

قصص من الكويت

ناصر الظفيري

ترنيمة متأخرة لشتاء ٩٢

* **بعد عامين**

يناير..

يقف تحت المطر.. ولا يقف المطر.. يفتح عينيه لإحدى قطراته... يُغْمضهما بسرعة.

يناير..

القلب مُشْبع بالهواء البارد، والريح تُعْول في شراييه الملبَّدة بالغيوم الحمراء.. ولم تمطر بعد.

يناير..

ومضت من دقاته اليوميَّة ثلاثُ دقات مليئةٍ بالغيوم والمطر. وكانت تَجْمع رداءها المخمليّ بلون القرفة، وتخرج.. من آخر ردهات القلب تخرج.

*** قبل عامين**

يناير..

والسماء تشتعل بهدير الطائرات. والجنود يُعدِّلون أوضاعهم. وأطفالٌ يتعلَّمون صُنعَ الكمّامات المنزليَّة: فحم.. ماء.. خرقة بيضاء.. قد تُنقذ حياتَك.. غرفة مغلقة النوافذ عليها أشرطة، ويمكن الاستغناءُ عن النوافذ.. بل من الأفضل الاستغناءُ عنها.

الشوارع مازالت تسير بالناس الذين لا يَحْفلون بأجهزة الدفاع الذاتيّ. فحين ترى الموتَ مرةً تقتنع أنّ الموت شخصٌ طبيعيّ جداً، وأنَّك تعرفه، وأنَّ احتمال هزيمته قائم.

يناير..

وصندوق البريد، المستعار من صديق جميل، يَصِلني بالعالم الخارجيّ الذي لم يعد مُغْرِياً.

رسالة صغيرة لي. تأمَّلتُ الطابع في أعلى زاويتها اليمنى: رسمٌ صارمٌ لواشنطن الرجل. فتحتُها بسرعة. كانت أحرفُ اسمها تقفز فوق أحرفِ عنوانها في الزاوية المقابلة. قرأتُها بسرعة:

«**أتخيلكَ الآن... والحربُ تقترب... وأنت تَنْثر الحنَّاءَ على خصلات شعري... أحسُّك الآن تمتلك هذه الأنثى بداخلي وتفر كطفلة مشاغبة من يديك الى يديك...**

والحرب تقترب، أسألكَ: أما زلتَ تحتفظ بمبادئك القديمة...؟».

لم يتغيَّر شيء... في المبنى المجاور طوابيرُ من الأجناس البشريَّة تنتظر دورها في الحصول على أقنعة الغاز.

يناير..

والقلب مُشْبع بالحنين إلى الوطن البعيد... والنار تضطرم كلَّما تذكرتُها هناك في بلدٍ يحتفل بالحرب على طريقة: "Kick Saddam out of Kuwait"

تناولتُ مجلةً أجنبيَّة من مكتبة صغيرة. صورة الغلاف مشطورة إلى نصفين: نصفُها الأعلى أسودُ اللَّون كُتِبَ عليه بالأبيض «الحرب»، ونصفُها الأسفل أبيضُ كُتِب عليه بالأسود «السلام». وفي صفحة داخليَّة جدولان للرأي العامّ، أحدُهما الأعلى نسبةً يؤيِّد دخولَ الحرب، والآخر الأقلُ نسبةً يعارض دخولها. فأضفتُ رقماً إلى الجدول الذي يؤيِّد الحرب؛ فأنا لم أكن أثق بالسلام.

وتذكرتُ في آخر رسالتها: «أما زلتَ تحتفظ بمبادئك القديمة»؟

دسستُ الرسالة ومبادئي القديمة في جيب سترتي.

أتجوَّلُ في الشارع العام. يسألني صديق: «متى ستبدأ الحرب؟».

وأجيب بسرعة: «حين يُقصف القصرُ الجمهوريّ في بغداد!».

بعد عامين

يناير...

وهو يَلْفظ من أنفاسه ثلاثَة أيام. في المطار كان وجهُها يائساً وحزيناً.

قلتُ: ما بكِ؟

قالت: هديتُكَ في الحقيبة التي تحملها... انتبه!

وألقيتُ الحقيبة في مؤخرة السيارة.

قالت: كيف الوطن؟!

قلت: صار أجمل... لماذا تأخَّرتِ كلَّ هذا الوقت؟!

قالت: الدراسة.

وأحسَّستُ أنَّني لم أقتنع... أكملتْ:

ـ تعرَّفتُ إلى شاب هناك.

قلتُ: تلك ليست مفاجأة... دائماً تفعلين ذلك.

وركبت السيارة.

قالت: إنَّه وسيم... هل تعرف معنى ذلك؟

قلتُ وأنا أتحرَّك بالسيارة: لم يكن الوسيمَ الوحيدَ الذي تعرفين.

غيَّرتْنا الحربُ. أصبحنا لا ندري ماذا نقول، أو ماذا نريد، أو نفعل.. غيَّرتنا الحرب... سرقتْ منا إنساننا الصغير ولغتنا العظيمة.

قالت: هل اشترى لي والدي سيارة جديدة؟!

وأجبتُ: لا أعتقد.

وبدون مناسبة سألتني: كم مليوناً تعتقد أنَّ والدي يملك؟

قلتُ: كنتُ أظن الأمر أُلوفاً...

وضحكَتْ.

*** قبل عامين**

يناير..

بعد أن لَفَظَ نصفَ أيامه ويومين، تساقطت القنابلُ من عمود السماء وزواياها، واحترقت الأرضُ، واتّسعت أعينُ الجنود الشبان لهولها.

يناير..

كنتُ أريد فقط أن أعود إلى وطني، وشيء من يناير في ذهني وحقيبتي. وتوقّعتُ أن يتوقّف الجحيم في آخر الشتاء، لأنّه لم يجد ما يفعله.

يناير..

وأشياء تحملها المدينةُ الصامتة وتلقيها في أحضاني.

أناس تسألني وجوهُهم ولا أجيب، وأسألها ولا تجيب، رغم توافر كمٍّ من الأسئلة المهولة والإجابات الأكثر هولاً.

أَحْمل قلبي بين أضلعي أحياناً، وأحياناً أتركه في فراش أمضيتُ فيه ليلتي. وتبقى في جيبي رسائلُها ومبادئُنا القديمة.

«أيُّها الصامت أبداً... أعرف بماذا تفكّر الآن هناك، وأعرف كيف تغتالك المدُنُ، ولكنّني لا أعرف كيف أنتابك». هكذا إذن.

في يناير بعد عامَيْن تخبرني أنّها تعرّفتْ إلى شاب وسيم... إنّه السلام الذي يَجْلب لها الأحبّة... ويجلب لهم الوسامة. لماذا كنتُ معها في الحرب؟ لماذا كانت معي في الحرب؟ ولماذا هربتْ مني حين جاء السلام؟

تركتُها في البيت، ووالدُها يسلم عليّ بحنق.. أتجاهله دون أن يؤثّر فيه تجاهلي، ويحتقرني دون أن يؤثّر فيّ تحقيره.. كان غاضباً لأنّنا معاً... قبل عامَيْن كان يقبّلني في كل مرة أقدّم له فيها أكياسَ الخبز، وكان يقول: «الحياة لا تساوي شيئاً... تخيّل أنّني لا أملك أن أشتري كيس خبز!». ويضحك... ثم يُكمل: «ما أرخص حياة الإنسان يا بنيّ!». وحين أخبرتُه أنّني سأخرج من جحيم البلاد، قال: «إنّها أمانة في عنقك يا بنيّ... إذا خرجتَ قلْ لها أن تأتي إليك!».

بعد فترات متقطّعة توقّفت الأحلامُ في أعين الكثيرين، وكان ذلك في يناير بعد عامَيْن. شاهدتُ بعضَهم يجسّد الخيانات الكبرى للدول في أصدقائهم، وبعضَهم يجسّد سرقات الدول في جيوب إخوتهم.

وكنتُ أفهم إسقاطات الحرب الصغرى على الآخرين... ولم تكن تَفْهم إسقاطات الحرب الصغرى عليها أو عليّ.

ولم يتغيَّر شيء... حاولتْ أن تعود إلى أشيائها في السِّلْم، وها هي تعود. ولم يبق سوى السؤال الصغير في داخلي: هل أعود أنا؟

لم تُغيّرْ فيّ الحربُ كثيراً. لكنّني في الحرب أحببتُها أكثر... وصدقتُها أكثر... وتظاهرتُ بأنّها لم تغيِّر فيَّ شيئاً على الإطلاق... مازلتُ بمثل صمتي وإخلاصي، لكنّني لا أريد للحياة أن تعود بهذه الرؤى الجديدة، وعليَّ أن أنتظر أكثر من مرّة ما سوف يكون.

اشتعلتْ نارٌ صغيرة في أطراف روحي. في موعدي التالي معها، رأيتُه يقتسم موعدي معها، ذلك الشابُ الوسيم. قالت: ها قد جاء!

وقدّمتني إليه على أنّني حبيبها، وقدمتْه إليّ على أنّه صديقها.

وقلتُ ببرود: هل تسمحون أن أعكس التقديم؟

قال الوسيم: لا لم أفكر بذلك أبداً.

نظرَتْ إليَّ بغضب وقالت: في ما يخصّني، أنتَ لا تَصْلح كصديق، أما كحبيب فنعم.

تركتُهما وانصرفتُ.

*** بعد عامين**

يناير..

في آخر أيّامه. وأشياء كثيرة اقتُلعتْ من حياتنا الصغيرة ولم تعُدْ...

لا شيء يعود...

يناير..

والريحُ تُعْول في شرايين قلبي وأَسمعُ صفيرها في أذنيّ، وروحي ترتجف، وأقترب من المدفأة أكثر... أتلحّف وأرتجف.

يناير..

يقف تحت المطر.. ولا يقف المطر.. يفتح عينيه.. تتساقط الأمطارُ فيهما. تنهمر قلوبٌ سريعة من زاويتيهما.. قلوب صغيرة ترتجف فيها صورٌ قديمة وأحلامٌ قادمة.. قلوب صغيرة تتساقط منها المبادئُ التي لا تموت □.